



د/ سمير عيتاني

جدلية الثقافة والهوية في شعر أحمد مطر.

Humanities and Educational  
Sciences Journal



مجلة العلوم التربوية  
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2617-5908 (print)

ISSN: 2709-0302 (online)

## جدلية الثقافة والهوية في شعر أحمد مطر (\*)

د/ سمير عيتاني

أستاذ مساعد اللغة العربية وآدابها

جامعة بيروت العربية - لبنان

تاريخ قبوله للنشر 3/9/2024

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(\*) تاريخ تسليم البحث 2/8/2024

(\*) موقع المجلة:

العدد(44)، شهر يناير 2025م

94

مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية

## جدلية الثقافة والهوية في شعر أحمد مطر

د/ سمير عيتاني

أستاذ مساعد اللغة العربية وآدابها

جامعة بيروت العربية - لبنان

### الملخص

هناك علاقة جدلية بين الثقافة والهوية، وبما أن الثقافة العربية اليوم تضعف أمام هيمنة الآخر الغربي أو العالمي على ميادين الفكر والإنتاج المادي؛ فإنّ الهوية العربية تتأثر بهذا الواقع، وضعف الهوية يؤدي حتمًا إلى إضعاف الثقافة أكثر فأكثر حيث ينفصّ أبناؤها عنها، ولعلّ أخطر ما يحصل اليوم هو ابتعاد الفكر العربي أحيانًا، عن المنطلقات وآليات الصيرورة الفكرية التي ينتجها هذا الفكر نفسه، أمّا الهوية فتتألف من ركنين: الثقافة المشتركة بين أبناء المجتمع، والمصالح المشتركة بين فئات هذا المجتمع، سواء أكانت نفسية أو مادية، وشعر أحمد مطر ينضح بهذه الأفكار المبتوثة في لافتاته، فهو يرى أن العربيّ وليد ثقافة عريقة، إلا أنّ الأنظمة الاستخباراتية تُقصي هذه الثقافة لتحلّ محلّها ثقافة أخرى هجينة، لا يؤدي فيها الإنسان دورًا سوى التلقي بصمت دون مشاركة في الفعل، ودون اعتراض، وكلّما بعدت الثقافة عن مظانها ومنطلقاتها أثّرت سلبيًا في بناء الهوية العربية الإسلامية التي باتت مشوّهة جدًّا.

الكلمات المفتاحية: أحمد مطر، الحضارة، الثقافة العربية، الهوية العربية.



## The Dialectic of Culture and Identity According to Ahmed Matar

**Dr. Samir Mohammad Itani**

Assistant Professor, Arabic Language and Literature  
Beirut Arab University

### Abstract

There is a dialectical relationship between culture and identity. Since Arab culture today is weakening in the face of the dominance of the Western or global other in the fields of thought and material production; Arab identity is affected by this reality. The weakness of identity inevitably leads to the weakening of culture more and more, as its people distance themselves from it. Perhaps the most dangerous thing that is happening today is that Arab thought sometimes moves away from the starting points and mechanisms of the intellectual process that this thought itself produces. As for identity, it consists of two pillars: the shared culture among the members of society, and the common interests between the groups of this society, whether psychological or material. Ahmed Matar's poetry exudes these ideas expressed in his poems. He believes that the Arab is the product of an ancient culture, but the intelligence systems exclude this culture and replace it with another hybrid culture, in which the person plays no role other than receiving silently without participating in the action, and without objection. The more culture is distanced from its meanings and starting points, the more it negatively affects the construction of the Arab-Islamic identity, which has become very distorted.

**Keyword:** Arab identity, Arab culture, Ahmed Matar, Civilization.

## مقدمة البحث:

في زمن هيمنة الرأسمالية<sup>(١)</sup> وبعدها العولمة<sup>(٢)</sup>، عاشت الشعوب العربية أزمة هوية، وتضخمت هذه الأزمة بعد الهزائم التي رزء بها العرب سنة (١٩٦٧) وغيرها، هذه الهزائم التي فضحت هشاشة أحلام النهضة، وعدم بناء المشروع النهضوي العربي على أساس صحيح، وفي غمرة الصراعات وإبان زمن التفكك السياسي والاقتصادي، لجأت بعض الأنظمة العربية إلى اعتماد كل ما يلزم للحفاظ على كينونة النظام ودوام الحكم، فجاء ذلك على حساب الشعوب المنضوية تحت هذه الألوية في الأقطار العربية، والحقيقة أنّ الهوية بناء معقد، ويزيد تعقيداً في العالم العربي عدم وضوح الرؤى المستقبلية التي تسير الشعوب، بل غياب الرؤى إذا جاز التعبير، ومن الشعراء الذين أرخت هذه الظاهرة بثقلها على شعرهم أحمد مطر، وهو الشاعر العراقي الذي انتقد النظام المخابراتي في قصائده، ولكنه، شأن جميع العرب، يعاني من أزمة الهوية.

## مشكلة البحث:

تتركز المشكلة التي يطرحها هذا البحث في نظرة أحمد مطر إلى العلاقة الجدلية بين الثقافة والهوية، وأثرها في تشكيل الهوية العربية، وزد على ذلك أنّ طريقة العيش في بلد الشاعر، وانطلاقاً من شعره، باتت مغايرة للثقافة المتوارثة، وللمنطلقات الثقافية الموجهة لنمط عيش هذه الشعوب الأمر الذي أذكى هذه العلاقة الجدلية نظراً إلى التبدلات المعيشية التي طرأت على المنطلقات الثقافية للأمة.

## أهداف البحث:

- ١- فهم العلاقة بين الثقافة والهوية من خلال شعر أحمد مطر، وهو شاعر يعبر عن حال الكثيرين في الوطن العربي ولا سيما في الأقطار المأزومة.
- ٢- فهم الواقع، ومشكلات الهوية العربية انطلاقاً من شعر أحمد مطر.

## أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الإسهام في التعلم من دروس الماضي، وكشف النقاب عن ما يؤثر سلباً في بلورة الانتماء عند أحمد مطر حسب رؤيته.

(١) الرأسمالية نظام اجتماعي لا تعود فيه الرساميل إلى أولئك الذين يجعلونها منتجة بعملهم، وبالمعنى التاريخي نظام الصناعة الكبيرة والملكية الخاصة المتطورة في البلدان الأكثر تمدناً في مجرى القرنين التاسع عشر والعشرين، (لاند، ٢٠٠١، ١/١٤٦)

(٢) العولمة (Globalization) "منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يراد بها إجراؤها العالم كله على الاندماج فيها، وتبنيها، والعمل بها، والعيش في إطارها" (بن عثمان، ٢٠٠٠، ص ٣).

### تساؤلات البحث:

تتمحور تساؤلات البحث حول ما يأتي:

- ١- ما الذي يشكل الهوية العربية؟
- ٢- ما علاقة الثقافة بالهوية؟ وهل تكون وحدها فكرة الانتماء؟
- ٣- كيف يرى أحمد مطر الهوية العربية؟
- ٤- ما المشكلات التي يراها أحمد مطر تضعف حس الانتماء عند العرب؟
- ٥- ما أفق رؤية أحمد مطر لمستقبل العرب؟

### الدراسات السابقة:

#### ١- معتر قصي ياسين (٢٠٢٠) سؤال الهوية في شعر أحمد مطر

انطلقت الدراسة من فرضية مفادها أن قضية الهوية خطاب ثقافي واجتماعي موجّه، وعامل من عوامل التحول والارتقاء بالوعي الثقافي والإنساني، وهدفت إلى رصد تحولات الهوية الذاتية والجمعية في مجمل التجربة الفنية والإبداعية، عبر استجلاء العلاقة التضادية أو التوافقية بين الأنا والآخر عند الشاعر، وتوصلت الدراسة إلى أن الذات الشعرية الواقعية قد فشلت في تأسيس هوية فردية منجزة تعبر عن خصوصية الفرد العربي وتحقق له الكيان الثقافي والاجتماعي المنشود، فاضطرت إلى العزلة والشعور الحاد بالاعتراب، وخلصت الدراسة كذلك إلى أن حضور الذات كان في صيغة تعادلية مع الآخر كون الذات لا تتحدّد إلا بتعالقها مع الغائب.

#### ٢- نور الدين زين العابدين متولي أحمد (٢٠٢٢) طمس الذات في شعر أحمد مطر

هدفت الدراسة إلى تبيان خصوصية طمس الذات عند أحمد مطر، ودوافع هذا الطمس في شعره، ومظاهره، وخلصت الدراسة إلى أن الشاعر استطاع أن يعبر عن قضايا عصره بطريقة سلسلة واضحة التفاصيل من دون إبهام ولا إبهام ولا تورية، واعتمد الشاعر على استدعاء بعض الصور القديمة مثل الأطلال وكذلك التناص الديني، لكنه قدمها في ثوب جديد، مما أحدث صراعاً بين أدواته الشعرية (كلماته) وأدواته الفكرية (فلسفته) من جانب، وبين الواقع من جانب آخر، كما فرقت الدراسة عبر الشواهد بين جبرية إرادة الطمس وفاعليته من طرف، ومظاهر الطمس وتناججه من طرف آخر، وقد نبعت فلسفة أحمد مطر من رؤيته النابعة من اقتناعه بكلمته، فقد هروا إلى طمس ذاته؛ لأن ذاته كائنة واضحة ماثلة مشرقة، فمهما طُست فلن يزول أثرها بمرور الوقت، ومن ثمّ فقد كان طمس ذاته طريقاً لبزوغها.

### العلاقة بين هذا البحث والدراستين السابقتين:

استفاد هذا البحث من الدراستين السابقتين حيث أمكن، إلا أن الطرح في هذا البحث يختلف عنما سبق نتيجة اختلاف الموضوع واختلاف المقاربة، فما تطرح هذا البحث هو طريقة تشكّل الهوية العربية من

خلال العلاقة الجدلية بين الهوية والثقافة عند أحمد مطر، والسؤال عما يعترضها من مشكلات في سبيل بلوغ الأرب فيها، وهذا الموضوع لم يُطرح من قبل في حدود علم الباحث.

### منهج البحث:

من أجل تحقيق أهداف البحث، اعتمد الباحث المنهج التركيبي في القسم الأول النظري، والبنوية التكوينية في القسم الثاني التطبيقي.

### خطة البحث:

تشمل مقدّمة البحث، ومشكلة البحث وأسئلته، وأهدافه، وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهجيته. وكذلك تشمل المبحث الأول: الثقافة والهوية، وهو طرح نظري لأفكار البحث، والمبحث الثاني: أحمد مطر وأزمة الانتماء، وفيه: الأنظمة العربية عند مطر ومعضلة الهوية، والثقافة العربية عند مطر بين الواقع والمأمول، وضياع الذات في الآخر عند أحمد مطر، والخاتمة وتشمل النتائج.

### المبحث الأول: الثقافة والهوية

الهوية بناء مركّب من مكونين اثنين: الثقافة المشتركة مع الجماعة، والمصالح المشتركة التي تؤمن مصير الفرد ضمن الجماعة من جهة، واستمرارية الجماعة من جهة أخرى بطريقة عادلة، وبما أنّ الثقافة بوصفها ذلك الكلّ المعرفي العام في الجماعة المميزة<sup>(١)</sup>، أي مجموع معارف الأمة، عنصر موجّه للبناء المادّي<sup>(٢)</sup>، فإنّ أثرها يؤصل لبناء الهوية.

(١) يعرف إدوارد برنت تايلور (١٨٣٢-١٩١٧) الثقافة، وهو أنثروبولوجي بريطاني، على أنّها "هذا الكلّ المركّب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكلّ القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع" (كوش، ٢٠٠٧، ص ٣١)، وهذا التعريف هو "أول تعريف علمي للثقافة" (ص ٣١)، إلا أنّه على أهميته، يبقى ناقصًا من جهة، ولا يلحظ التعددية الثقافية من جهة أخرى، فالثقافة عنده هي الكلّ المعرفي الشامل الموجود في مجتمع محدد، فتبرز تلك العلاقة غير المفهومة بين الثقافة والمجتمع، فهل تشكل الثقافة المجتمع أو العكس؟ ما الذي يميز مجتمعًا عن آخر؟ ثمّ ما الذي يميز ثقافة عن أخرى؟ وماذا عن المنطلقات الثقافية المؤسسة في نظرة الإنسان إلى الوجود وفهمه، وتحديد موقعه منه، ورسم المصير؟ ويرى الجابري (٢٠٢٣) أنّ "الثقافة لا يُنسب إلى ثقافة معيّنة إلا إذا كان يفكر داخلها، والتفكير داخل ثقافة معيّنة لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بواسطتها" (ص ١٣)، والتفكير بواسطة ثقافة ما، "معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تشكل إحداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوّناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي، والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، وإلى الكون، والإنسان، كما تحددها مكونات تلك الثقافة، فالفكر يحمل معه، شاء أم كره، آثار مكوناته، وبصمات الواقع الحضاري الذي تشكّل فيه ومن خلاله" (ص ١٣).

(٢) تتألف الحضارة من عمودين هما الثقافة والمدنية، على أنّ الثقافة هي المعارف الموجودة في الأمة من الناحية الفكرية والمعرفية، والمدنية هي التظاهر المادّي الملموس لهذه الثقافة.

والمشكلة التي تواجه الأمة العربية في أقطارها المختلفة هي أزمة تحديد هذه الهوية، وذلك يعود إلى أسباب متعدّدة، أهمّها عدم بناء الأقطار العربية اعتماداً على عقد اجتماعي بين المواطن والدولة بحيث يُبنى هرم الهوية من أسفل إلى أعلى، بالنظر إلى المشتركات الثقافية والماديّة لكلّ جماعة، ثم ينبثق من ذلك إطار تنظيمي يربط بين الجميع على أساس ماديّ فتتشكّل الهوية والدولة.

واللافت على أرض الواقع هو ابتعاد تشكّل الهوية العربية عن هذا الإطار، لذا بات يرتبط عند الشعوب العربية بشكل عام بالإرث الثقافي، وبالتاريخ الذي لا يُنظر إليه إلا من خلال الاعتقاد بمثاليته<sup>(١)</sup>، وهذا الموضوع جزء من الأزمة التي لا تتيح للمفكر العربي أن ينطلق من الأنا المعاصرة لتشكيل الأنا المستقبلية، فالمستقبل عندهم رهن الماضي، والنهضة لا تعدو البحث عن طريقة استعادة الماضي التليد، والعصور العربية الذهبية، تلك العصور التي يراها المعاصرون مثالية دون أن تكون كذلك على أرض الواقع.

وبناء على ما تقدم، يستحضر العرب نماذج قديمة ثم يحاولون تطبيقها - نظرياً - على أرض الواقع، بغية الوصول إلى عصر ذهبي أنتجته - حسب مخيلتهم - هذه النماذج الفكرية، وهنا يقع المفكر في مشكلتين: تتمثّل الأولى في أن ما كان يناسب الماضي لا يناسب الحاضر قطعاً، والثانية أن هذه النماذج لم تؤدّ إلى مستقبل غير حاضرنا الذي نعيشه، إلا أنّ ذلك كلّه لا يعني بأية حال من الأحوال أن يشكّل الفكر قطيعة مع الثقافة العربية، ولكن السؤال هو ماذا نأخذ من هذه الثقافة؟

على الأمة أن تُبقي على ما يشكّل الأنا المتميزة، فالثقافة تضم المنتجات الثقافية وكذلك المنطلقات وآليات التشكيل، وعلى المعاصرين أن يعتمدوا على المنطلقات التي شكّلت الثقافة العربية وتشكّلها في كلّ حين فتعطي العربي عرويته، وعلى آليات التشكيل التي لا تنفصل عن المعطى الثقافي، وهذه الثقافة اندمجت مع الإسلام، فشكّل الدين أحد أبرز منطلقاتها، وأما الآليات فتتمثّل في العقل العربي، أي طرق التفكير التي تفرضها هذه الثقافة على أبنائها، وكلّ ثقافة تحمل طرق تفكير معيّنة، والعقل العربي فلسفيًا هو "جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمتممين إليها كأساس لاكتساب المعرفة" (الجابري، ٢٠٢٣، ص ٣٧)، و"العقل العربي هو العقل المكوّن"<sup>(٢)</sup>، أي جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمتممين إليها كأساس لاكتساب المعرفة، أو لنقل: تفرضها عليهم كنظام معرفي<sup>(٣)</sup>، وهناك ملحوظة مهمة مفادها أن "الفكر العربي هو عربي، ليس فقط لكونه تصورات أو آراء ونظريات تعكس الواقع العربي أو تعبر عنه بشكل من أشكال التعبير، بل أيضًا لأنّه نتيجة طريقة، أو أسلوب في التفكير، ساهمت في

(١) يرى الجابري (٢٠٢٣) أن "ظاهرة تداخل الأزمنة الثقافية والترحال الثقافي في حياتنا الفكرية الراهنة تطرح مهمة مستعجلة، مهمة إعادة كتابة التاريخ العربي بصورة تعيد إليه تاريخيته"، (ص ٤٦).

(٢) العقل المكوّن هو "النظام المعرفي (مفاهيم، تصورات...) الذي يؤسس الثقافة التي تنتمي إليها الجماعة" (ص ١٦).

تشكيلها جملة معطيات، منها الواقع العربي نفسه بكل مظاهر الخصوصية فيه" (ص ١٢)، ثم إنَّ "بنية العقل الذي ينتمي إلى ثقافة ما، تتشكّل لاشعوريًّا داخل هذه الثقافة، ومن خلالها، وتعمل بدورها، وبكيفية لاشعورية كذلك، على إعادة إنتاج هذه الثقافة نفسها" (ص ٤٠).

والثقافة الحالية لا يمكن أن تستمدَّ وجودها إلا من خلال التناص<sup>(١)</sup> مع الماضي دون أن تكون استحضارًا لهذا الماضي، فالعصر الذي فرض نمطًا معيّنًا من فهم الإنسان للوجود تاريخيًا يتحرك باستمرار، وبناء على هذا المعطى لا بدّ من تطوير فهم الإنسان للوجود باستمرار للحفاظ على هوية الجماعة، إلا أن هذا الفهم لا بدّ له من أن ينطلق من ثقافة الأمة في تفاعلها مع الواقع المعيش.

### أزمة الهوية العربية:

بما أنّ الأسس التي تشكل الهوية متغيرة ومتطورة زمنيًا، فإنَّ "الهوية ليست كيانًا يُعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنّها حقيقة تولد وتنمو، وتتكوّن وتتغير، وتشيع وتعاني الأزمات الوجودية والاستلاب" (ميكشلي، ١٩٩٣، ص ٧)، وهي "وجود وماهية، الوجود سابق للماهية دومًا، الأمر الذي يعني أنّ الماهية ليست معطى نهائيًا، بل هي شيء يتشكّل، شيء يصير" (الجابري، ٢٠٠٦، ص ١٠).

وإذا كان البحث عن الهوية يأتي عن "طريق تحديد الصلة بين الأنا والآخر، فإنَّ عملية "التراث والتجديد" هي الكفيلة بتحقيق ذلك؛ لأنّها اكتشاف الأنا وتأصيلها وتحريها من سيطرة الثقافات الغازية، مناهجها، وتصوّراتها، ومذاهبها، ونظمها الفكرية" (حنفي، ١٩٩٢، ص ٢-٢١)، والهوية لا تتحدّد من دون الآخر، فنحن "لا نعرف الذات دون الآخر" (الرويلي والرازعي، ٢٠٠٧، ص ٢٢)، وهو "في أكثر معانيه شيوعًا، يعني شخصًا آخر أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحّدة، وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة أسّطع (أو نستطيع) تحديد اختلافي (أو اختلافنا) عنها" (ص ٢٣)، فالهوية إذًا تتحدّد بالسلب، بالاختلاف عن الآخر الذي لولا وجوده لما عرفت الجماعة هويتها، ويرى عبد الإله بلقرز<sup>(٢)</sup> أن "الآخر هو الذي يحدّد الذات وي طرح على وعيها الذاتي سؤال الماهية، وهو نفسه الذي يصوغ السؤال ويترك للعرب أن يفكروا داخل الحدود التي يرسمها، والحقّ أن سؤال الماضي (= التراث) ما كان ليطفو فجأة على سطح الوعي العربي لو لم يكن ثمة من أيقظه أو وفّر لانبعاثه الأسباب، ولقد أيقظه

(١) التناص حسب جوليا كرسيفا "أحد مميّزات النص الأساسية، والتي تحيل على نصوص أخرى سابقة عنها أو معاصرة لها، وهو مجموعة من النصوص التي تتداخل في نص معطى" (علوش، ١٩٨٥، ص ٢١٥).

(٢) عبد الإله بلقرز مفكر مغربي معاصر حاصل على شهادة دكتوراه الفلسفة من جامعة محمد الخامس بالرباط، ويشغل منصب أمين عام المنتدى المغربي العربي في الرباط، وهو أيضًا مدير الدراسات في «مركز دراسات الوحدة العربية» في بيروت سابقًا، له ما نيف على الثلاثين كتابًا.

الآخر (الأوروبي) بمدنيته، وثقافته، وأسئلته التي اندفع الفكر العربي يجيب عنها" (بلقزيز، ٢٠٢٠، ص٢٨)، والهوية لا تبني على أساس الثقافة المشتركة مع الجماعة في حدود مخالفتها مع الآخر، بل تتحدد كذلك من خلال المصالح المشتركة بين أفراد الجماعة في ظل نظام يكفل مصلحة الفرد ومصصلحة الجماعة في المجتمع، إذ إنّ "المصلحة التي تربط مجموعة بشرية معينة هي العامل الرئيس في قيام النظام الثقافي الاجتماعي الخاص بهذه المجموعة" (زيادة، ١٩٨٧، ص٥٦)، و"بناء الهوية يتم داخل الأطر الاجتماعية التي تحدد موقع الأعوان، وتوجهه، في الوقت نفسه تمثلاتهم وخياراتهم" (كوش، ٢٠٠٧، ص١٥٢-١٥٣)، فتصبح بذلك المصلحة المشتركة أساساً في تكوين الانتماء إلى الجماعة بالإضافة إلى الثقافة، فالهوية تتشكل من عمودين هما: الثقافة المشتركة مع الجماعة، والمصلحة المشتركة مع الجماعة، والهوية في المقابل ترسم شيئاً من شكل الثقافة كذلك في علاقتها الجدلية معها، علماً أن الثقافة متحركة كما الهوية، فكأما ضعف الشعور بالهوية والانتماء عند شعب ما، دخل في الآخر وبالتالي ضعفت الثقافة الأصلية أكثر فأكثر، وتحولت نحو ثقافة الآخر.

والهويات اليوم تعاني من مشكلة كبرى تتمثل في طوفان مصالح الآخر في نظام العولمة على مصالح الشعوب التي باتت تمثل السوق الاستهلاكية للشركات الكبرى، فتعاني الأمم التي تمثل سوقاً للنظام الرأسمالي من إشكالية الهوية؛ فقد فرض عليها الآخر المتفوق سلعه وثقافته وماديته لدرجة أنه سلبها الذات في كثير من الأحيان، أو همّش هذه الذات على الأقل، ومن الأمثلة التي نضربها على ذلك غير العالم العربي ما يبرز في مسألة الدراسات الأميركية اللاتينية مثلاً، فإن "ظاهرة اغتراب المكسيكي، وظاهرة تهميشه بعيداً عن مركز المدينة الغربية يجعلانه ممثلاً للإنسان الغربي المعاصر" (باين وآخرون، ٢٠١٨، ١/٥٧٨).

وهذه الأزمة يعاني منها العالم العربي بشكل عام، وقد عانى منها قبل عصر العولمة من خلال الإمبريالية، ويرى أحمد مطر أن بعض الأنظمة العربية تواطأت مع الإمبريالية العالمية، فعملت ضد مصالح شعوبها، وقمعتهم، فكانت النتيجة الحتمية تهميش الهوية إلى حد الوصول إلى فنائها.

### المبحث الثاني: أحمد مطر وأزمة الانتماء

أحمد مطر، "شاعر عراقي الجنسية ولد في عام ١٩٤٥ نظم في بدايته الشعر الرومانسي، ثم تحول بعد ذلك إلى الشعر السياسي الذي يعبر عن حال وطنه وسائر الأوطان العربية، مُنع من كتابة الشعر في العراق ففر هارباً إلى الكويت، وكانت جريدة "القبس" متنفسه الشعري لكتابة "لافتاته" المتنوعة، وفي الجريدة ذاتها كان يعمل الفنان ناجي العلي رساماً، فكان كل منهما يكمل الآخر هذا بقلمه وذاك بريشته، وكان لاغتيال رفيقه أثر غائر في نفسه لم ينفك عنه ولا منه، وفي عام ١٩٨٦ انتقل إلى لندن متخذاً منها وفيها ملاذاً آمناً بعيداً عن ضوضاء السياسة العربية، وما زال يكتب في جريدة الراية القطرية بعض المقالات

واللافتات التي تعبر بصدق عن فلسفته وهويته الذاتية في الحياة" (زين العابدين، ٢٠٢٢، ص ١٩٩)، وتميّز أحمد مطر بنظم الومضة الشعرية في "لافتات" كما يسميها.

وهذه السيرة الصعبة دفعت الشاعر إلى السؤال عن الهوية وعن الانتماء، فكيف يبقى للعربي أي شكل من أشكال الهوية ما دام يعيش في ظل وطن لا يلي حاجاته الثقافية أو الاقتصادية؟  
الأنظمة العربية عند مطر ومعضلة الهوية:

بما أن الهوية تتكون من عمودين أساسيين هما الثقافة المشتركة، والمصالح المشتركة مع الجماعة في ظل نظام عام، فإن الخلل الواضح على المستوى المادي أرحى بظلاله عند الشاعر، ويظهر انتماؤه إلى الثقافة العربية الإسلامية من خلال ظاهرة التناص المنتشرة في معظم قصائده مع هذا التراث، ومنطلقه الديني، فيستحضر "مطر" الكثير من الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، أو الشخصيات التاريخية، وفق تصور حالي مثالي لواقعها يمثّل الإرث الثقافي العربي، وقد قال:

قرأتُ في القرآن:

"تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ"

فأعلنتُ وسائلُ الإذعان:

"إنَّ السكوتَ من ذَهَبٍ"

أحبيتُ فقري .. لم أزلُ أتلو:

"وَتَبَّ"

ما أغنى عنه مالهُ و ما كَسَبَ"

فصودرتُ حنجرتي

بِحُزْمِ قِلَّةِ الأدبِ

وصودرَ القرآنُ

لأنه.. حرّضني على الشَّعْبِ (مطر، ٢٠١١، ص ١٣)

تظهر في هذه القصيدة جدلية العلاقة بين الدين بوصفه المنطلق المؤسس في الفكر العربي، والأنظمة الاقتصادية القائمة في الدول العربية، فالقرآن الذي يمثّل المنطلق الحضاري التنزيهي في الإسلام يدخل في صدام مع الطبقة المستغلة مادياً، ويفضها، وأشار الشاعر إلى الآية الكريمة التي تمثّل بيت القصيد وهي ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ٢]، ويستعملها الشاعر للإيحاء بقدسية الصراع بين الأغنياء والفقراء في المجتمع، ولذلك مهّد لذكر الآية بقوله "أحبيت فقري"، ففقر الشاعر الذي يمثّل المواطن المستغل بل الطبقة المستغلة يُدينه القرآن من حيث هو استغلال الإنسان للإنسان، والقرآن يشكّل منطلق الثقافة الإسلامية، فيضعه الشاعر في مواجهة مع الطبقة الغنية المتسلطة، فتكون النتيجة أن صودرت

حنجرته، وصور القرآن، فهذه الطبقة المتسلطة والمستغلة، والتي تتمي ثروتها على حساب الشعوب، قادرة على تعديل الثقافة المتوارثة، وقادرة على تسديد الضربات للمنطقات الحضارية بحد ذاتها. وبما أن الإنسان في العالم العربي يفقد منطلقاته الحضارية، ويفقد شبكة المصالح مع الشريك في هذا المجتمع الذي كان ينبغي أن يتكامل معه لتشكيل وجه الأمة، فإن هويته تسقط بشكل تلقائي، ولذلك يقول في قصيدة أخرى:

### فليسقط الوطن

... نحن الوطن!

من بعدنا تبقى الدواب والدمن

نحن الوطن!

إن لم يكن بنا كريماً آمناً

ولم يكن محترماً

ولم يكن حرّاً

فلا عشنا... ولا عاش الوطن! (مطر، ٢٠١١، ص ١٢٨)

سقطت الهوية عند الشاعر، وقد عبّر عنها بسقوط الوطن، وما الوطن إلا تلك الشراكة بين جماعة بشرية ارتضوها لأنفسهم، وهي مبنية على أساس من الثقافة المشتركة، ونظام يؤمن شيئاً من العدالة بين الأفراد على المستويات الاقتصادية، والشعور بالكرامة، والإسهام في رسم المصير المشترك، والمشكلة التي يعاني منها العربي اليوم حسب الشاعر هي غياب الشعور بالكرامة الناتج من غياب الحرية، وتسلب فئة قليلة على أفراد الشعب بالقوة، وعدم القدرة على المشاركة في السلطة أو في رسم ملامح المستقبل، فالإنسان عنده ليس "كريمًا آمنًا" رغم أنّ الأمر بديهي وهو من حقوق الإنسان كما توحى القصيدة، وهو ليس حرّاً مع أن حرية التعبير حقّ لكل مواطن في الأنظمة الديمقراطية.

وقد يستقر في مخيال بعض العرب أن الماضي كان مثاليّاً سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي، أو على مستوى العدالة بين الأفراد، وبعض هذا التوهّم نصوص أدبية تدعي التاريخية أحياناً، والواقع أن المثالية غير متحققة على الأرض سواء في الماضي أو في الحاضر، وفي كثير من الأحيان عمدت السلطة قديماً عند العرب إلى سياسات كم الأفواه، وصولاً إلى الإلغاء الفكري أو الجسدي أحياناً من خلال إحراق كتب المفكرين، أو من خلال إعدامهم، أو نفيهم<sup>(١)</sup>، ناهيك من معاناة جماعات كثيرة في غير عصر من

(١) إن التاريخ حافل بقضايا طال المفكرين لمخالفتهم آراء السلطة، وعلى سبيل المثال فقد جرى إعدام ابن المقفع، والحلاج، وغيرهما، وجرى نفي ابن رشد وإحراق كتبه.

الفقر، وشعورهم بالدونية أو بالظلم، وهذا ما تسكت عنه كتب التاريخ بشكل عام، إلا أن المخيال الشعبي العام ينظر إلى الماضي نظرة مثالية، وأن العصور الذهبية عند العرب لم يرافقها أي من أمارات الظلم أو ما شابهها، وهذه هي الثقافة الحية في أذهان الكثيرين.

ومن أجل الوصول إلى معنى القصيدة عند أحمد مطر لا بدّ من استحضار هذه الثقافة الشعبية التي تنظر إلى التراث نظرة مثالية، فيوجد تناصاً معها ليُظهر لهؤلاء المتلقين أنفسهم عظم المفارقة بين الماضي والحاضر، فيدخل في الشعرية من خلال رسم صورة يوجهها كما يشاء بعد أن يجمع المتناقضات في الفكرة الواحدة، ويقول كذلك:

"أدري بأن النار

موقدة... من حطبِ الفقير

ليدفاً الدولار!" (مطر، ٢٠١١، ص ١٧)

النار في هذه الصورة الشعرية معطى جديدي، فالغني ينظر إليها على أنّها مصدر الدفء والنعيم والإنتاج، في حين يراها الفقير عذاباً تحوّلته إلى حطب لتقتات به، أمّا المشكلة التي يعاني منها العربي فهي إحراق الذات من أجل الدخول في الآخر، فالسلطة تضحي بالشعوب بعد أن تحوّلت اقتصادياً وثقافياً إلى الآخر الغربي الذي يمثله الدولار في هذه الصورة.

وكلمة "موقدة" صفة للنار تشكّل تناصاً مع الآية الكريمة في سورة الحطمة، يقول تعالى ﴿وَيَلِّقُ لِكُلِّ هُمْزٍ لَمَزَةٌ ۖ الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۗ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۗ﴾ [٦-١]، فالنار الموقدة بالأصل، الحطمة ﴿وَمَا آذْرِيكَ مَا الْحَطْمَةُ ۗ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۗ﴾ [الهزمة: ١-٦]، وفي المخيال الشعبي الذي يبحث عن العدالة معدّة للأغنياء الذي يستغلون الفقراء فيزيدون في فقرهم، بل هي معدّة لأسلوب ثقافي وحضاري مادي قائم على النفعية واستغلال الآخرين بغية تحقيق الربح، والمفارقة في الصورة الشعرية التي رسمها أحمد مطر تكمن في أن النار الأرضية باتت تصيب الفقراء بدلاً من الأغنياء، والفكر التنزيهي بدلاً من المادي، فتحدّث المفارقة التي يجيد الشاعر استنطاقها في سبيل شعرية التلقي وجمالية التعبير.

الثقافة العربية عند مطر بين الواقع والمأمول:

يرسم أحمد مطر صورة للثقافة العربية المشتركة لا تنفصل عن الإسلام، ويرى بذلك أن الإسلام يشكّل مثالية هذه الثقافة التي يجب أن يسعى المتمون إليها إلى تحقيقها، أي إلى تحقيق المشروع الحضاري الإسلامي.

ويحشد أحمد مطر في معجمه الشعري حقولاً مستمدّة من التراث العربي الإسلامي، سواء من خلال مصطلحات السلطة: "الوالي والخليفة"، أو من خلال التناص المتناثر في طيات كلماته مع القرآن وما ارتبط به، كالكعبة الشريفة، والصلاة، و"العياذ بالله"، وغير ذلك، فالأنا عند أحمد مطر هي الأنا الجمعية العربية الإسلامية التي تنوء تحت وطأة الانكسار والتشظّي، ثم توشك أن تفقد ذاتها أمام ضربات الآخر. أما المفارقة عنده فتكمن في توق الشعوب العربية المسلمة بمعظمها إلى بناء الجسور بين الماضي والحاضر والمستقبل لمتابعة البناء الحضاري المميّز، في حين يتواطأ الحكّام العرب مع الغرب الغازي لينصروا أعداء الدين والهوية العربية على حساب شعوبهم التي يحكمونها بالسيف، وكفي تتمكن السلطة الحاكمة من إتمام عملها تعتمد إلى خنق الحريات، وتعتمد على أنظمة مخابراتية لمراقبة أفراد الشعب جميعاً، ويقول الشاعر:

يا مولانا ابراهيم  
اغمد سكينك للمقبض  
واقبض أجزك من أصحاب الفيل  
لا تأخذك الرأفة فيه  
بدين البيت الأبيض!  
نقد رؤياك ولا تجنح للتأويل  
لن ينزل كبش... لا تأمل بالتبديل  
يا مولانا  
إن لم تدبج نديجك  
فهذا زمن آخر  
يفدى فيه الكبش

بإسماعيل! (مطر، ٢٠١١، ص ٢٣)

ففي هذه القصيدة يخاطب السلطة السياسية التي تضحي بالشعب، ولكنه يستحضر بسخرية لافتة شخصية النبي إبراهيم، وقصة الذبح والفداء، وقيم تناساً ثقافياً مع التاريخ ومع المقدس الديني في الإسلام، فالفداء يجب أن يكون في خدمة الإنسان، وهدفه الارتقاء بإنسانية الإنسان، والتضحية تكون باليسير من الممتلكات أو الجهد أو غيره من أجل خدمة الجماعة، وهذه الفكرة تمثل منطلقاً ثقافياً، بل ثابتاً ثقافياً، ومعطى إيمانياً يرسم طريقة عيش المجتمع الإسلامي، ويقونن التوجه الاقتصادي فيه، أي بوجه الهوية، في حين أن الحاصل اليوم هو عكس ذلك تماماً، وما يقوم به أهل السلطة هو التضحية بالشعب من أجل المال (يفدى فيه الكبش بإسماعيل) وإسماعيل يمثل الشعب بأكمله، فنثقافة اليوم المفروضة على الشعوب

العربية تناقض تراثها ومعتقداتها، وبالتالي لم تعد تعمل على تحقيق الذات لأنها لم تعد موجودة فعليًا إلا في المخيال الثقافي الجمعي، وفي القصص المتوارثة، فالفداء ثقافيًا لم يعد متحققًا على الأرض، ولم يعد يمثل طريقة عيش، وبالتالي لم يعد معطى ثقافيًا لهذه الأمة إلا من خلال التوق إلى وجوده، وبما أنّ الثقافة شكّلت قطيعة مع العقل العربي باتت مشوهة لا يمكنها أن تشكل ذاتًا في مقابل الآخر، ولا يمكنها أن ترسم إطار هوية فاعلة متحركة على الأرض، وجل ما يمكن أن يرسم الهوية العربية هو هذا الحلم بمستقبل مستمدّ من تاريخ مجيد يشكل تفاصيله الحلم نفسه كذلك، واللافت في هذه القصيدة أنّ الدين الجديد الذي يحل محل الإسلام - حسب تعبير الشاعر - هو "دين البيت الأبيض"، أي النظام الأميركي أو الغربي، نظام العولمة، فكلّ ما يحصل من مشكلات في العالم العربي إنّما يُخدم هذه العولمة التي تبني نفسها وصروحها على أنقاض الآخرين الذي تدمرهم، ويقول في قصيدته "فتوى أبي العينين":

صدرت فتوى الإمام:

(يُقطع الرأسُ

وتبقى جثةُ الوغدِ تُصلي

آه... يا لّلي

(والسلام)! (مطر، ٢٠١١، ص ٢٠٢)

تبرز هنا السلطة الدينية المتواطئة مع الأنظمة، ولعل اسم أبي العينين إشارة إلى النظر بمنهجين مختلفين، ففي حين أنه ينبغي على الإمام أن يقود الأمة انطلاقًا من شرع الله، إلا أنه يتحوّل من خلال العين الثانية إلى متنكّر فعليًا وعمليًا لهذا الدور، ويحوّله لخدمة النظام دون خدمة خالق النظام، والمشكلة التي تواجه السلطة الدينية هي نفسها المشكلة التي تواجه الأنظمة الاستبدادية وهي الوعي، فالمفروض بالنسبة إليهم أن يصلي المرء لتسهيل السيطرة عليه، ولكن يجب أن لا يفكّر، لذا جاءت صورة "قطع الرأس" في القصيدة تعبيرًا عن إعدام حرية التفكير الديني وغير الديني، واللافت في الأمر أن هذا الإمام قد حوّل الدين إلى طقوس بدلًا من كونه طريقة عيش، فالمؤمن عليه أن يصلي، وعلى السلطة أن تحافظ على صورة المصلين وإبرازها وتقديسها، إلا أن الذي يصلي يجب أن يكون جثة لا تفكّر، بل تلتزم بتنفيذ الأوامر والنواهي كما هي على أنّ لها الجثة، ثم ختم الفتوى بقوله: والسلام، وكأن السلام لا يتحقق إلا بإقصاء المعرفة وآلياتها، فالشخصية العربية المفكّرة - حسب الشاعر - لا مكان لها وسط هذا النظام، وبناء على ما تقدّم، فإن الثقافة العربية التي فرضتها الأنظمة التي لم تبنَ بدورها على أساس من ثقافات شعوب المنطقة، باتت مرفوضة، بل يجب قطعها لتحلّ محلّها ثقافة أخرى قائمة على الجهل، وقبول الفقر، وتمجيد الاستبداد، وديوان الشاعر زاهر بلافتات يحتج فيها على طريقة تجهيل الشعوب، فالأنظمة العربية لا

تكتفي بإطفاء ضوء النهار كما يظهر من خلال قصيدته "صباح الليل يا وطني"، بل "خلاصة الكلام، مدّ النظام كفه.. وأطفأ الظلام!" (مطر، ٢٠١١، ص ٢٠٣).

فالتفكير الحر الذي يمكن أن يؤدي إلى بناء هوية حقيقية تميز شعوب هذه المنطقة مرفوض بالنسبة إلى الأنظمة الحاكمة حسب الشاعر، ومن المعلوم أن الشعوب غير المثقفة يسهل خداعها باسم الدين، أو باسم تأمين لقمة العيش<sup>(١)</sup>، أو غير ذلك، ومن الواضح أن الشاعر إنما يطلب حرية التفكير والإبداع في الميادين كافة، وهو يريد أن يلج الشعب العربي في علمية الفكر العلمي بعيداً عن الأساطير، وبعيداً عن تحكم السياسة بالدين.

ولا يغيب عن شعور الشاعر إحساسه بقسوة الفقر الذي يرخي يثقله على الشعب، وهو عنصر أساسي في بناء الهوية، فيقول في قصيدته "أسباب البقاء":

ما عندنا خبز .. ولا وقود

ما عندنا ماء... ولا سُدود

ما عندنا لحم... ولا جلود

ما عندنا نقود

كيف تعيشون إذن!؟

نعيش في حبّ الوطن! (مطر، ٢٠١١، ص ٢٧٠)

تظهر السخرية جلية في هذه القصيدة، والمفارقة التي تدفع السامع إلى استنكار النتيجة غير المتوقعة وغير المنطقية؛ فالذي لا يملك أسباب الحياة لا بدّ له من الثورة، إلا أنه رغم افتقاره - وضمير الغائب يمثل الشعب - لأساسيات العيش من خبز ووقود وماء ولحم ونقود، فإنه لا يحمل في قلبه إلا حبّ الوطن الذي يُغنيه عن كلّ شيء، وقد أراد الشاعر أن يسخر من الواقع المرير؛ فالشعب لا يتمتع بالقدرة على الاستمرارية، فكيف الأمر إذاً بالإبداع والتطور؟ المهم أن يحب الشعب الوطن، ولا يستطيع أن يقول شيئاً آخر في ظلّ الأنظمة الاستخباراتية، علماً أن الوطن هنا تورية عن النظام الحاكم، لا عن الوطن المبتنق من إرادة الجماعة، ينظمه أبناؤه بطريقة تناسب ثقافتهم وتؤمن مصالح الجميع بشيء من العدالة، ومن البديهي أن هذه المفارقة إنما هي دعوة للثورة على الواقع، ورفض للجوع، إلا أن الجائع يمكنه أن يصرخ أحياناً ولكن لا يمكنه أن يشتري سلاحاً ليقا تل به، وبالتالي، فإنّ الواقع مأساوي كما يراه الشاعر، فهوية هذا الشعب

(١) يقول مكيا فيلي: "إن أولئك الذين تمكنوا من تقليد النعلب تقليدًا طيبًا قد نجحوا أكثر من غيرهم، ولكن الضرورة تحتم على الأمير أن يكون مدهانًا كبيرًا، ومراتبًا عظيمًا"، و"ليس من الضروري... أن يتصف (الأمير بالصفات الحسنة كلّها)، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه" (١٩٩٩، ص ١٤٩)، ومن الواضح أن الحكام كما يراهم أحمد مطر، قد التزموا بشيء من آراء مكيا فيلي، فهم يتظاهرون بممارسة الشعائر الدينية بما تحمله من سلطة القداسة، ولكنهم في المقابل يوجهون هذه الشعائر لخدمة مصالحهم.

مشوّهة، في حين أنّه ينبغي له أن يحصل على أسلوب عيش ينبثق من تاريخه، ونظام من المصالح المشتركة والمواطنة يؤمن مصلحة كلّ من الفرد والجماعة.

ولا شكّ أن الثقافة أساس البناء الماديّ عند "مطر"، والمشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الشعب مبدأها ثقافيّ، واغترابها عن ثقافة الشعب المتوارثة والمؤسسة لهويته معولٌ هدم في شعور الفرد بالانتماء، فيقول في قصيدته "جاهليّة":

في زمن الجاهليّة  
كانت الأصنامُ من تمرٍ  
وإن جاع العبادُ  
فلهم من جنة المعبودِ زادُ  
وبعصر المدنيّة  
صارت الأصنامُ  
تأتينا من الغربِ  
ولكنّ.. بئيب عربيه  
تعبُدُ الله على حرفِ  
وتدعو للجهاذُ  
وتسبُّ الوثنيّة!  
وإذا ما استفحلتُ  
تأكلُ خيراتِ البلادُ  
وتُحلّي بالعباد!

رحم الله زمان الجاهليّة (مطر، ٢٠١١، ص ٣٩)

يقارن الشاعر بين أسلوب عيش الجاهليين ثقافيًا واقتصاديًا، وأسلوب عيش العرب الراهن، وتكمن المفارقة بأن الثقافة الحالية أسوأ من ثقافة عصر الجاهلية التي ألغها الإسلام، إلا أن أسلوب عرض الأفكار اليوم أكثر نجاسة، فالحاكم يجعل نفسه صنمًا يُعبد عمليًا وإن لم يُعبد طقسياً، ويُصّبه الغرب، لذا هو مرتحن للغرب ومصالحه على حساب مصالح الشعوب، والمفارقة الثانية تكمن في كون الآلهة التي هدمها الإسلام كانت تُشبع الجوعى؛ لأنّها كانت تُصنع من التمر أحياناً، إلا أن الأصنام الحالية هي التي تأكل الخيرات، وكذلك البشر، والاستنتاج المنطقي أننا نعيش في عصر أسوأ من الجاهليّة، وإذا كان أسلوب حياة الجاهليين لم يبن هوية عربية بل هوية قبلية، فإن أسلوب الحياة الحالية في ظلّ هذه الأنظمة القمعية لا يمكنه أن يبني هوية، بل هو يفرّق الناس، ولا يراهم إلا بعض أملاكه الخالصة، يسرق أرزاقهم، ويقتلهم إن

احتجوا، واللافت أنّ الشاعر لم يعد يأمل في إيجاد حلّ لهذه العضلات، فالواقع المشوّه مرض عضال لا شفاء منه، ولهذا تراه يقول:

يريدون مني بلوغ الحضارة

وكلّ الدروب إليها سُدى

والخطى مستعاره (مطر، ٢٠١١، ص ٢٤)

فالشاعر لا يستشرف حلّاً لمعضلات الأمة، وهو في أنه يمثل الشعب الذي ينتمي إليه، وفي سعيه إلى بلوغ الحضارة التي هي مطمح كلّ إنسان، بل هدف كلّ إنسان، لا يجد طريقاً توصله إليها، ذلك أنّ الطرق مستعارة أي لا تتبع من ثقافة الأمة، وكلّ إسقاط من خارج لا يوصل الشعب إلى التطور المرجو، بل يقيه في حيز الاستهلاك، وهو ما يفرضه الغرب على المجتمعات الأخرى. ويقول كذلك قصيدة تناول فيها نظرتة الخاصة إلى الكرامة العربية:

"في مقلب القمامة

رأيت جثة لها ملامح الأعراب

تجمعت حولها النسور والذباب

وفوقها علامة

تقول: هذي جيفة

كانت تُسمّى سابقاً... كرامة!" (مطر، ٢٠١١، ص ١٢)

وفي هذه القصيدة يرى الشاعر أن جزءاً أساسياً من الثقافة العربية التي تؤدي دوراً جوهرياً في تشكيل الهوية قد ضاع، وهو ما نظر له فوكوياما الذي يرى أن تحقيق النزعة التيموسية<sup>(١)</sup> هو محرّك الشعوب ومحرّك الصراع، ومن يفقد هذا المحرّك يفقد الرؤية إلى المستقبل، وبما أن الثقافة يحدها كذلك هذا الحدّ أي النظرة إلى تحقيق أهداف مستقبلية مشتركة منبثقة من المنطلقات الحضارية، فإن هذه الثقافة المتحققة اليوم على الأرض باتت مشوهة بسبب بتر أطرافها المستقبلية، وحرمان الشعوب من تحقيق الكرامة، فالكرامة العربية، لأسباب مختلفة، جرى القضاء عليها واستحالت جيفة حسب الشاعر.

ومن يتصفح ديوان أحمد مطر يجده زاخراً بثقافة إسلامية يضعها الشاعر مقابل الثقافة السائدة، وبما أن الثقافة بحد ذاتها جدلية وتنبثق من أساليب الإنتاج، فالثقافة العربية الحالية، حسب شعره، باتت

(١) "التيموس (Thymos) هو الرغبة في السيطرة" (فوكوياما، ١٩٩٠، ص ٢٠٧)، بل هو الجزء من النفس الراغب أبداً في نزع الاعتراف من الآخر في الوجود والأهليّة والتفوق، و"منطق انتزاع الاعتراف قد أدى في النهاية إلى الرغبة في الاعتراف عالمياً وهذه هي الإمبريالية" (ص ٢٠٧)، إنّ عدم تلبية هذه النزعة، ولا سيّما من خلال الأنظمة السياسيّة، يؤدي إلى تقهقر الذات، ما يؤدي إلى ضعف الانتماء.

استهلاكية بشكل مقيت حتى إنّها تستهلك التاريخ بطريقة غير خلّاقة، وبالتالي لا يرجو من أمة لا تُبدع ذاتها أي نخضة، يقول مخاطبًا الأرض العربية الإسلامية في قصيدته "قومي احبلي ثانية":

فَصِيحُنَا بَبْغَاءُ

فَوَيْئًا مَومِيَاءُ

ذَكِينًا يَشْمَتُ فِيهِ الْعَبَاءُ

وَضَعْنَا.. يَضْحَكُ مِنْهُ الْبِكَاءُ (مطر، ٢٠١١، ص ٣١)

إن ضمير جمع المتكلمين عنده يعود على العرب كما هو واضح في القصيدة، وتراه لا يفصل العرب عن الإسلام، وهذا أمر بديهي، إلا أنّ الأمة اليوم، حسب مطر، تعاني من مشكلة تأصيلية في الذات الجمعية، وهذه الذات التي تشكل الهوية تعاني من أزمة ثقافية، فالفصيح<sup>(١)</sup> عند العرب مقدّم في المجتمع<sup>(٢)</sup>، ناهيك من كونه صوت المجتمع، والناطق باسم الناس، أي أنّه المثقف المفترض من أبناء الأمة العربية، وهذا الفصيح اليوم ببغاء، وهذه الصورة التي رسمها الشاعر توحى بأنّ هذا الفصيح المثقف يكرّر الكلام دون تفكير، ويحيل الأشكال الثقافية إلى نقيضها، فالفصيح ينبغي له أن يكون - حسب الموروث الثقافي - قائدًا في ميدان الثقافة حرّ الرأي، طليعيًا، يقدّم للمجتمع مادة معرفية جديدة، لكنه اليوم، رغم تشبثه بدوره الطليعي نظريًا، لا يقدم الجديد فكريًا، ويكرّر كالببغاء ما يُقال وما قيل، فما هو بالطليعي، وما هو بالفائد، هذا إن لم يكن مأجورًا تريد له السلطة أن ينسف أسس الثقافة المؤسسة للمجتمع وللأمة.

ويرصف الشاعر الصور المشابهة، فالقوي عندنا مومياء، والمومياء جسد فقد الحياة، ولا يتحرك، هو صورة فحسب، فالقوي الذي ينبغي أن يدافع عن الجماعة لا حياة فيه، ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه ناهيك من الآخرين، ويكمل الصورة فيقول: ذكينا يشمت فيه الغباء، فالذكيّ هو المبدع، ومشكلة الأمة تتلخص في غياب الإبداع، فالفصيح لا يبدع، لذا هو ببغاء، والقوي لا يتحرك، والذكي لا يبدع؛ لذا هو غائب فعليًا، والنتيجة التي يصل إليها بعد هذه المقدمات هي واقع الأمة المأزوم، فيقول: وضعنا يضحك منه البكاء، فالواقع سيئ للغاية، يفقر إلى عامل أساسي هو الإبداع في كلّ شيء.

وفي القصيدة نفسها يبحث الشاعر عن حلول لهذه المعضلة التي يشير بسخريته المعهودة إلى كونها متأصلة في العرب، فيقول:

(١) إنّ أصل مادة (ف، ص، ح) في معجمات اللغة الذي فُرعت منه "هو الخلوص والنقاء، وهذه الدلالة تربط مفردات المادة كلها" (الكواز، ٢٠٠٦، ص ١١).

(٢) يُروى حديث شريف عن الرسول (ﷺ) أنه قال "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" (الزمخشري، ١٩٩٦، ص ٩)، ويبدو أن هذا الحديث ضعيف رغم اتفاق العلماء على صحة معناه، راجع: (الشاعر، ٢٠١٣، ص ١٦١)، إلا أن انتشار هذا الحديث مرده إلى أهمية الفصاحة عند العرب في الجاهلية وبعدها.

يا أَرْضَنَا، يا مَهْبِطَ الْأَنْبِيَاءِ  
قَدْ كَانَ يَكْفِي وَاحِدًا  
لَوْ لَمْ نَكُنْ أَعْجَبَاءَ (مطر، ٢٠١١، ص ٣١)

فأرض العرب هي مهبط الأنبياء، لذا، يخاطبها ويُسائلها عن سرّ كثرة الأنبياء الذي أرسلهم الله لهذه الشعوب، ويحجب نفسه معللاً بغباء الأمة، فهذه لا يكفيها نبي واحد بسبب جهلها وغبائها، ولكن الشاعر لا يرى الحلّ إلا بالثقافة الإسلامية المتمثلة بصورة النبي في القصيدة، فيقول:

يا أَرْضَنَا  
ضَاعَ رَجَاءُ الرَّجَاءِ  
فِينَا، وَمَاتَ الْإِبَاءُ  
يا أَرْضَنَا لا تَطْلُبِي مِنْ دُنَا كَبْرِيَاءِ  
قومي احبلي ثانيةً  
وَكشّفي عَنْ رَجُلٍ  
لهؤلاءِ النساءِ.

فالحلّ عنده لا يكون إلا بمعجزة جديدة، ونهضة العرب لا تكون إلا من خلال نبي جديد، يحمل كلام الخالق دستوراً، وينشر الإبداع في الأرض محلّ التكرار (البغاء)، فلا نهضة بثقافة لا تشبه المنطلقات الإسلامية، ولا نهضة بثقافة غير إبداعية، وبما أن الشاعر لا ينتظر الإبداع من الموتى فإنه يطلب من الأرض أن تلد نبياً جديداً، وتصبح النهضة رهينة معجزة إلهية، ويطلب في النهاية من الأرض أن تكشف عن رجل، ومفهوم الرجولة في الثقافة العربية مرتبط بالإنجاح، فالرجل في النظام الأبوي، وهو النسق الثقافي المهيمن على الفكر العربي تاريخياً، هو المنتج، وهو الذي يمتلك أساليب الإنتاج، وهو الذي طورها، والإنسان الذي لا يؤدي هذا الدور يتحول إلى امرأة، أي إلى كائن غير منتج يعيش عالة على المنتج وفي كنفه، ولا يمكنه أن يتخذ القرارات، بل يحتاج إلى قوام يوجهه، فالأمة اليوم امرأة غير منتجة، تحتاج إلى رجل كامل الرجولة يحيلها عما هي فيه، ولا تكون النهضة إلا بهذه المعجزة حسب شعر أحمد مطر.

وفي المحصلة، فإن الشاعر يطالب بنهضة ثقافية حقيقية تنبثق من منطلقات الإسلام، بدليل استعماله كلمة "نبي" لوصفه حاجة الأمة إلى معجزة، كما أن النبي يكون معصوماً عن الخطأ أقله في تبليغ الرسالة، والرسالة بذاتها تكون إبداعية؛ لأنها كلام الله الذي يحمل توجيهها لا يخيب، وتظهر الجدلية من خلال البون الشاسع بين المتحقق من الثقافة التي تعجز عن تحقيق الهوية العربية، والمطلوب تحقيقه ثقافياً لبناء هوية تفتقر لها الأمة اليوم.

## ضباع الذات في الآخر عند أحمد مطر:

إن الذات لا تتشكل إلا تحت أنظار الآخر، فالآخر أساسي في رسم صورة الأنا الجمعية التي تتحدّد باختلاف عنه، إلا أنّ ما يحصل اليوم على الأرض أمر آخر ومختلف، إذ إن الهوية العربية تدوب في الآخر الغربي، صحيح أن "المعلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب" (ابن خلدون، د. ت، ١٤٧) إلا أن هذا الافتداء بات يطال المنطلقات الحضارية، وعملية التقدّم أو تحقيق الذات الجمعية أي الهوية باتت مستحيلة بسبب هيمنة الآخر على الذات، وبسبب كون الحكام العرب امتداداً لهذا الآخر يعضدونه بسلطتهم بدلاً من مقاومته، ويقول أحمد مطر راسماً شكل الدروب إلى الحضارة:

"يريدون مني بلوغ الحضارة  
وكلُّ الدروب إليها سُدَى  
فَمَا بَيْنَنَا أَلْفُ بَابٍ وَبَابٍ  
عَلَيْهَا كِلَابُ الْكِلَابِ  
تَشْمُ الطُّنُونُ وتسمع صمتَ الإشارة  
وتقطعُ وقتَ الفراغِ بقطعِ الرِّقَابِ!  
فكيفَ سَأْمُضِي لِقَصْدِي  
وَهُمْ يُطْلِقُونَ الْكِلَابَ على كلِّ دربٍ  
وَهُمْ يَرِيطُونَ الْحِجَارَةَ!

\*\*\*

يريدون مني بلوغ الحضارة  
ومازلتُ أجهلُ دربي لبيتي  
ومازلتُ أجهلُ صوتي  
وأعطي عظيمَ اعتباري لأدنى عبارة  
لأنَّ لساني حصاني  
كما علّموني  
وأنَّ حصاني شديدُ الإثارة  
وأنَّ الإثارة ليست شطارة  
وأنَّ الشطارة في رِبْطِ رأسي بصمتي  
وربّطِ حصاني  
على بابِ تلك السَّفارة

.. وتلك السَّفارة! (مطر، ٢٠١١، ص ٢٤)

يرى الشاعر أن الدخول في الآخر، والانتقال من حيز الأنا إلى حيز الهويات سمة من سمات العرب في عصر الإمبريالية، وتالياً في عصر العولمة، والكينونة العربية ضاعت، ولا يمكن تشكيلها من خلال الآخر، ولا يستطيع الفرد أن يشكل ذاته إلا من خلال التذبذب في الجدلية الحضارية والعبور إلى ما يخالفه من تجليات الآخر الذي يفرض نفسه عليه، والمأمول عنده هو النهضة الحضارية كما صرّح في بداية القصيدة، إلا أنّ طرق تحقيق هذه النهضة مستحيلة، فالنهضة المرجوة "لا تنطلق من فراغ، بل لا بدّ فيها من الانتظام في تراث، والشعوب لا تحقّق نهضتها بالانتظام في تراث غيرها، بل بالانتظام في تراثها هي" (الجابري، ١٩٩١، ٣٣)، والواقع العربي يتنكر للتراث وللثقافة العربية وللمنطلقات العربية، ولا يسعى إلى تكامل اقتصادي بين أفراد الجماعة، بل على النقيض، فإن الأنظمة العربية تدمر هذه الاقتصادات، وتضعف الشعوب مادياً لتضعف هويتها.

واللافت أن خطاب أحمد مطر الشعري لا يهدف إلى البناء بل إلى الهدم، وهو بذلك خطاب سلبّي يركّز على سوء السلطة الحاكمة، وتراه يجمع في شعره موبقاتها، ويبدو أن البناء من جديد حسب رأيه لن يتمّ إلا من خلال هدم البناء الحالي، فهو سباق في جيل الثورات العربية التي انطلقت أواخر عام (٢٠١٠) من تونس، وكانت الشعوب العربية فيها تدعو إلى "إسقاط النظام"، ولعلّ المشكلة الأبرز هي في شعور العرب بالبون الشاسع بين حالهم المتردية وتفوق الآخر، ولا سيما بعد أن دخل الجميع عصر العولمة، وفي هذا العصر فرض المشروع الغربي بكلّ مندرجاته تفوقه على كلّ ما عداه، وصار يحكم الكرة الأرضية بشكل ما، ولا سيما من خلال الاقتصاد الكونيّ.

أمّا بالنسبة إلى أسباب ضياع الذات فيذكر أحمد مطر الجهل، والفقر، والاستعباد، فالأنظمة العربية التي لا تشبه الشعوب العربية ولا تعبر عنها - حسب رأيه - فرضت الجهل على شعوبها لاستمرارية السلطة من جهة، وللحفاظ على مسار المشاريع السياسية في توازاتها من جهة أخرى، يقول:

"اثنان في أوطاننا

يرتعدان خيفة

من يقظة النائم:

للص.. والحاكم!" (مطر، ٢٠١١، ١٠٢)

يقارن أحمد مطر بين اللصّ والحاكم، ووضعهما جنباً إلى جنب للدلالة عن لصوصية الحاكم، فهو صنو للص الذي يسرق المتاع عندما ينام أصحاب البيت، أما الحاكم فلا يمكنه أن يسرق الدولة إلا إذا نام الشعب، وما يخيف الحاكم هو يقظة هذا الشعب الفكرية، فعندئذ سيثور ويقتلع هذه الأنظمة الدكتاتورية، وهذه دعوة صريحة للثورة، وهنا يلّمح الباحث أن الذات الجمعية العربية مطموسة، وقد عبّر عنها الشاعر

من خلال "طمس ذاته"<sup>(١)</sup> التي عبّر عنها في شعره، فالعربي يشعر بأنّ هويته مطموسة وقد عبّر عنها الشاعر من خلال أناة التي طمسها في كثير من القصائد في دلالات رمزية واضحة، والشاعر "قد غلب عليه القهر والجبر بغية طمس ذاته، سواء أكان ذلك بمحض إرادته الحرّة الإيجابية مفروضة عليه من ذاته، أم بإرادة خارجية سلبية نابعة من واقعه السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي" (زين العابدين، ٢٠٢٢، ص ٩٠٠).

فالهوية العربية مصابة إذًا بداء الجهل، وهو مرض يصيب الجانب الثقافي في بناء الهوية، ويؤثر سلبيًا في الجانب الاقتصادي بشكل كبير، وهذا ملمح أساسي في تشوّه هذه الهوية بفعل الثقافة. ومما قاله الشاعر في هذا الصدد تحت عنوان "أسلوب":

كلّما حلّ الظلام

جدّتي تروي الأساطير لنا

حتى ننام.

جدّتي معجبة جدًّا

بأسلوب النظام! (مطر، ٢٠١١، ص ١٠٢)

انطلاقًا من العنوان، يحلّل الشاعر "أسلوب" الحكم وأهدافه، فهو مثل جدّته، عندما يحلّ الظلام، وحتى تُبعد الخوف عن قلوب الصغار، وتفصلهم عن الواقع، تُدخلهم إلى قوقعة خيالية جميلة يصدق الأطفال أطيافها؛ فيُسرون بالوهم، وقد استعمل الشاعر كلمة "الظلام" ولم يستعمل كلمة الليل مثلًا للدلالة على سوداوية المشاهد والأيام الصعبة، فالليل وقت طبيعيّ يتبعه النهار، وهو على علاقة سببية بتجدد الوضوح، أما الظلام فواقع لا نهاية له حسب سياق نص الشاعر، وعندما تُصيب الأمة هذه الملمات، فإن الأنظمة تُخدع شعوبها بكلام لا يتحقق على أرض الواقع، كالوعود التي لا تُنفذ، وأوهام التطوير، وما شاكل ذلك، فشبه الشاعر ضمنيًا هذه الاستراتيجيات بالأساطير كي يُبرز انفصالها عن الواقع المعيش، وعدم تحقيقها، أما الهدف من ذلك كله فهو تخدير الشعوب، وجعلها "نام" أي تنقع بما هو موجود عبر تجميل الموجود بالكلام المكذوب.

وعن علاقة ما يقوله الشاعر بالثقافة، فإنّ الأنظمة، من خلال الإعلام وغيره، تزرع ثقافة وهمية في مخيال الشعب، وتبني بذلك هوية على شفا جرف هار، بل تبني ثقافة من وهم، وبالتالي تبني هوية مشوهة من وهم مشكلاتها أنّها لا تتحقق، والهدف كما سبق أن ذكر هو تخدير الشعوب، وفصلها عن الواقع، ودفعها إلى تقبل النظام وطرق العيش التي يفرضها بغية استمراريتها، وتحقيق أهدافه.

(١) راجع في هذا الصدد: زين العابدين، نور الدين متولي أحمد (٢٠٢٢)، طمس الذات في شعر أحمد مطر، مجلة الدراسات الإنسانية

ويهدف الشاعر من خلال هذه الالفة إلى التعبير عن ضياع الذات الثقافية العربية في ظل الأنظمة الاستبدادية، فتدخل الأنا العربية في الآخر المتخيّل والذي تمثّله هنا كلمة "الأساطير"، وهذا ضياع مرّ، فلا هو دخول في الآخر، ولا هو صنع ذات حقيقية، بل هو ضياع تام لا يتأتى عنه إلا الجمود المتمثّل في "النوم" كما جاء في القصيدة.

بناء على ما تقدّم، تصبح الهوية العربية شبيهة بالجمّة التي لا يفكّر أحدٌ بإحيائها، بل بمرضى يحتضر دون أن يتمكن الأطباء من إسعافه وتطبيبه، فينتظر أهله الوفاة بعد أن استسلموا لأن حاله ميئوس منها، وكذا هي حال الأمة العربية اليوم، حالها ميئوس منها في نظر السواد الأعظم، والدليل الساطع هو ما جرت الإشارة إليه من الدعوات إلى الهدم في الثورات العربية، وكأن هذه الشعوب تسعى إلى لحد ميّت بات يشكّل عبئًا على الأحياء.

إلا أن هذه الظاهرة خطيرة للغاية، فهي انتحار جماعي، ودخول في المجهول المعتم، وهذا ما رآه الشاعر في قصيدته "سطور من كتاب المستقبل" حيث يقول فيها:

"وعلى الهامش سطر:

أثرٌ ليس له اسمٌ

إنّما كان اسمه يومًا

... بلاد العرب" (مطر، ٢٠١١، ص ٤٠).

فهو يستشرف نهاية الصراع مع الآخر، إلا أن النتيجة كارثية؛ إذ إن القادم هو محو العرب وبلادهم، محو الهوية العربية، فالمشكلة الأبرز التي تواجه العرب هي انتهازية الآخر الغازي المعتدي بطرق متعددة، وطواؤو السلطة الحاكمة مع هذا الآخر لإضعاف الشعوب العربية، وبيع واقعها ومستقبلها، فالعرب يدخلون جبريًا في الآخر، بدلًا من تشكيل الذات تحت أنظاره. والدخول في الآخر بالنسبة إلى الشاعر قرار سياسيّ اتخذته السلطة الحاكمة، وهي سلطة الأمر الواقع، فيقول واصفًا الحكومات العربية:

أسرتنا فريدة القيم،

وجودها عدم،

ججورها قمم،

لاءاتها نعم،

والكل فيها سادة لكنهم خدم،

أسرنا مؤمنة تطيل من ركوعها، تطيل من سجودها،

وتطلب النصر على عدوها من هيئة الأمم (مطر، ٢٠١١، ص ٣٨ - ٣٩)

فهذه السلطة لا تحدد ذاتها من خلال تشكّل الذات العربية، بل من خلال تواطؤها مع الآخر المستغلّ، وهي لا تعدو كونها جزءاً من هذا الآخر في ثوب الذات، وبناء على هذه المعطيات لا يمكن للأمة أن تتقدّم، وفي ذلك يقول في قصيدة "سيرة ذاتية":

مَمْلَةٌ بِي تَحْتَمِي.

تَحْتَ نَعْلِي تَرْتَمِي.

أَمِنْتُ ..

مُنْذُ سِنِينَ

لَمْ أُحْرِكْ قَدَمِي!

(2)

لَسْتُ عَبْدًا لِسُورِي ..

وَرِي: حَاكِمِي!

(3)

كِي أَسْبَغَ الْوَاقِعَ الْمُرَّ

أَحْلَيْهِ بِشِيءٍ

مِنْ عَصِيرِ الْعَلَقِمِ!

(4)

مُنْذُ أَنْ فَرَّ زَفِيرِي

مُعْرِبًا عَنْ أَلْمِي

لَمْ أَذُقْ طَعْمَ فَمِي!

(5)

أَخَذْتَنِي سِنَّةً مِنْ يَقِظَةٍ ..

فِي حُلْمِي.

أَهْدَرَ الْوَالِي دَمِي!

(6)

جَالِسٌ فِي مَأْتِي.

أَتَمَنَّى أَنْ أُعْزِبَنِي

وَأَخْشَى

أَنْ يَطْنُونَا أَنِّي لِي أَنْتَمِي!

(7)

عَرَيْتُ أَنَا فِي الْجَوْهَرِ

لَكِنْ مَظْهَرِي

يَجْمَلُ شَكْلَ الْآدَمِيِّ! (مطر، ٢٠١١، ص ٢٢٥)

يحدد الشاعر في هذه القصيدة هويته المفروضة عليه من خلال واقع العقل العربي المشوّه في هذا الزمن، فهو الثابت الذي لا يتحرّك كما يوحي المقطع الأول، وهذا يعني أنّه لا يُنتج جديدًا ولا يتطوّر، وصورة النملة المختبئة تحت نعله، والمحتمية من الخطر بألة القتل، إنّما فعلت ذلك لإيمانها العميق بأنّه لن يتحرّك، ولن يتطوّر، وأما المقطع الثاني فيرمز إلى صورة الحاكم في العالم العربي الذي نصّب نفسه إلهًا يُعبد، فالنظام هو روح العقل المنتج المتحرّك، وأما الواقع فهو سكون أزلي أبديّ حيث تخنق السلطة كلّ فكر أو إبداع أو هوية، والنتيجة أن الواقع بات مرًا أكثر مما يمكن أن يتخيّل الإنسان، حتى إنّّه إذا أراد تحلية الواقع أضاف له عصير العلقم، والمفارقة هنا واضحة جليّة، فالتحلية إنّما تكون بالسكّر أو بما هو حلو كالعسل، ولكن الواقع مرير لدرجة أنّه يصبح أكثر سلاسة إذا مُزج بأمرّ نبات في الدنيا حسب المخيال الشعبي وهو العلقم، وهذه الصورة تحيل إلى مرارة الواقع الذي لا يضاويه شيء في سوئه، ومن ثمّ يشير الشاعر إلى فكرة "طمس الذات" (زين العابدين، ٢٠٢٢، ص ٩٠٠) التي تظهر في كثير من قصائده من خلال فرار الزفير أي الشعور، فهو مواطن بل صورة مواطن لا يشعر بالواقع، ولا يتنهّد، ولا يعبر عن ألمه، هو ساكن لا يتفاعل مع معطيات الوجود، ولا يتأثر بهذا الوجود، وهذه هي القاعدة التي تريدها السلطة من العرب حسب الشاعر، وحدث أن أخذته سِنَّةٌ من اليقظة، ويظهر التناص الديني مع القرآن ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فانكسرت سكونيته ليدخل في تماس مع نقيضه ولو للحظة، ولكن الخشية تتمثل في أن الصراع بين المتناقضات يولد العقل، ويولد التجديد، فما كان من السلطة الحاكمة إلا أن حكمت عليه بالإعدام، وبالفعل، نُقِدَ الحكم دون معارضة من أحد، أو من المحكوم، ثم يدخل في صورة شعرية أخرى ويصوّر نفسه جالسًا في مأتمه يتقبّل التعازي، فتمنى أن يعرّي نفسه، والتمني في العربية يكون للأمر المستحيل، لكنّه خشي أن يُعاقب بعد الموت، خشي أن يظنوا أنّه ينتمي لنفسه، أي أنّ له كيانًا مستقلًا وعقلًا مفكرًا، بيد أنّه في النهاية يحدّد هويته فيقول إنّّه في الجوهر عربيّ وساكن غير متحرّك، ولكنّه أُشِمَّ شكلاً آدميًا، فليس له من البشرية إلا الشكل، فيضع العربي في موضع التناقض مع الآدميّ، وتظهر المفارقة في القصيدة في الاعتراف المباشر بأن العرب ليسوا من البشر، فهم لا يشكّلون ندًا لأيّ أحد في ميزان الأمم، وبالتالي لا وجود لهم ولا يُحسبون من بين البشر.

تثير هذه القصيدة إشكالية العلاقة بين السلطة والشعب، ولكن السلطة لا تكون في النظام الحاكم في الدولة فقط، بل تكون في الفكر النابع من هذا النظام كذلك، ومن الثقافة وآلياتها، فالعقل العربي الحالي المشوه حسبما يرى الشاعر لا يحق له أن يكون منتجاً، والرقابة حاضرة لأنها موجودة في آليات هذا العقل العربي، هذا العقل الذي فشل في النهضة، وفي تكوين ذات خاصة تصلح لأن تكون نديّة للآخر، وسبب هذا الفشل هو في عدم اليقظة، تلك العبارة التي شكّلت مركزية القصيدة، وعدم يقظة الشعب سببه التسلّط الذي تمارسه السلطة بكلّ تحلّياتها سياسياً وثقافياً ودينياً واقتصادياً، وفكرة غياب الذات، التي تهيمن على نصوص أحمد مطر، إنّما تكون لصالح المتسلّط، فالأنا غائبة لصالح الهو الذي لا يسمح للأنا بأن تتشكّل، ولهذا السبب فإنّ الشعب العربي لا هويّة له.

والأنكى هو أنّ الشاعر لا يأمل في النهضة البتّة، وترد في ديوانه قصيدة حوارية عنوانها "شروط الاستيقاظ" مباشرة بعد قصيدة "سيرة ذاتية" لتشير إلى علاقة مباشرة بين النصين، يقول فيها:

أيقظوني عندما يمتلك الشعب زمامه.

عندما ينسط العدل بلا حدٍ أمامه.

عندما ينطق بالحق ولا يخشى الملامة.

عندما لا يستحي من لبس ثوب

الإستقامة

ويرى كل كنوز الأرض

لا تعدل في الميزان مثقال كرامة.

سوف تستيقظ.. لكن

ما الذي يدعوك للنوم

إلى يوم القيامة؟! (مطر، ٢٠١١، ص ٢٢٥)

فالشاعر يطبّق مبدأ السببية بين النصّين؛ فالأول سبب للثاني، وإن كانت قصيدة "سيرة ذاتية" توصّ واقع غياب الهوية العربية في عصر الشاعر، فإنّ القصيدة الثانية "شروط الاستيقاظ" تمثّل ما يترتّب عن هذا الواقع من نتائج، فالنتيجة المحسومة هي عدم قدرة العرب على النهضة من جديد، وعدم إحياء الهوية العربية، وشرط الوجود، كما هو واضح في قصيدته، هو أن يتمثّل الشعب مكارم الأخلاق والحرية، ويشارك في رسم المستقبل، لكن الإجابة تأتي في سخرية سوداء بأنّه سينتظر هذا الأمر إلى يوم القيامة في إشارة إلى استحالة تحقّقه، وهذه القصيدة تختلف عن غيرها عند الشاعر لأنها توصف شروط النهضة وبناء الأنا الجمعية العربية التي يمكن أن تكون نديّة للآخر، وهي العيش في ظل نظام يكفل المصالح المشتركة بين المتمنين إليه (عندما ينسط العدل...) والاشترك في ثقافة يرتضيها الجميع على أنّها تمثّل نهجاً مثاليّاً

أخلاقيًا (ينطق بالحق - ثوب الاستقامة) والتضحية من أجل هذا الهدف المشترك (يرى كلّ كنوز الأرض لا تعدل في الميزان مثقال كرامة)، فالشاعر في هذه القصيدة معيّب وليس غائبًا، وضع شروط النهضة، رغم علمه بأنّ تحقيق هذا الأمر أقرب إلى المستحيل.

### الخاتمة:

خرج البحث بمجموعة من الاستنتاجات أهمها:

- ١- تتشكّل الهوية من ركنين هما ثقافة مشتركة بين أفراد الجماعة، وبنية من المصالح المشتركة المنظّمة.
- ٢- العلاقة بين الثقافة والهوية جدلية، فالأولى تؤثر في الثانية والثانية تؤثر في الأولى في حركة دائبة.
- ٣- الهوية ليست معطى نهائيًا بل هي بناء متكامل دائم التشكل من خلال علاقاته الجدلية مع مكوناته.
- ٤- يعاني العرب من أزمة حضارية تمنعهم من تشكيل المستقبل العربي من خلال المنطلقات الذاتية.
- ٥- الهوية العربية بالنسبة إلى أحمد مطر قد أصيبت بعموديتها: الثقافة المشتركة، ونظام المصالح المشتركة، فالثقافة العربية مشوهة.
- ٦- يرى الشاعر أن البناء الاقتصادي مرهون للسلطة الحاكمة ومن يدور في فلكها، وهي أصلًا امتداد للآخر المستغل، وليست نابعة من ذاتية الشعوب العربية، ولا تعبّر عنها.
- ٧- يمثّل أحمد مطر بشعره صوت الجيل الذي فقد إيمانه بالنهضة العربية، والثورة العربية، بعد أن فشلت هذه الأفكار في إنتاج واقع مأمول كان يطمح العربي إلى تحقيقه.
- ٨- ويرى الشاعر أن الذات العربية مستلبة، ومن الصعب أن يتمكن الشعب العربي من بناء نهضة؛ لأنّ شروطها الثقافية والاقتصادية غير موجودة، ونتيجة لذلك فإن الهوية العربية تتشكل في المخيال العام للأمة من خلال الموروث التراثي كما يراه العرب اليوم، والأزمة التي تطال العرب هي أزمة هوية وانتماء، أزمة في تشكيل الذات أمام طوفان الآخر.

### المصادر والمراجع:

#### القرآن الكريم.

- ابن خلدون (د. ت). المقدمة. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ابن عثمان، عبد العزيز (٢٠٠٠). العولة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم.
- أبو نواس. (١٩٨٧). الديوان. دار الكتب العلمية.
- باين، مايكل، وآخرون. (٢٠١٨). قاموس النظرية الثقافية والنقدية. ترجمة هيثم غالب الناهي. المنظمة العربية للترجمة.

بلقزيز، عبد الإله (٢٠٢٠) نقد التراث ط ٣، مركز دراسات الوحدة العربية.

- تويني، أرنولد (١٩٤٨). *الحضارة في الميزان*. ترجمة أمين محمود شريف، دار إحياء الكتب العربية.
- الجابري، محمد عابد (١٩٩١). *التراث والحداثة*. دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية.
- \_\_\_\_\_ (٢٠٠٦). *مسألة الهوية العربية والإسلام*. والغرب ط ٣، مركز دراسات الوحدة العربية.
- \_\_\_\_\_ (٢٠٢٣). *تكوين العقل العربي*. ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية.
- حنفي، حسن (١٩٩٢). *التراث والتجديد (موقفنا من التراث القديم)*. ط ٤، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- الرويلي، ميجان، والرازعي، سعد (٢٠٠٧). *دليل الناقد الأدبي*. ط ٥، المركز الثقافي العربي.
- زريق، قسطنطين (١٩٦٤). *في معركة الحضارة*. دار العلم للملايين.
- الزخشري، جار الله. (١٩٩٦). *الفائق في غريب الحديث*. تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية: بيروت.
- زيادة، معن (١٩٨٧). *معالم على طريق تحديث الفكر العربي*. عالم المعرفة: العدد ١١٥.
- زين العابدين، نور الدين متولي أحمد (٢٠٢٢). *طمس الذات في شعر أحمد مطر*. *مجلة الدراسات الإنسانية الأدبية: العدد ٢٧ يونيو، ٨٩٣-٩٤٧*.
- الشاعر، حسن عبد المجيد عباس (٢٠١٣). *حديث الرسول (ﷺ): "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" سنده وروايته ورأي العلماء فيه، دلالاته*. *مجلة اللغة العربية وآدابها*، ١ (١٨)، ١٥٧-١٧٤.
- شريعتي، علي (١٩٨٦). *العودة إلى الذات*. ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، الزهراء للإعلام العربي.
- علوش، سعيد (١٩٨٥). *معجم المصطلحات الأسلوبية المعاصرة*. دار الكتابي اللبناني.
- فوكوياما، فرانسيس (١٩٩٠). *نهاية التاريخ والإنسان الأخير*. ترجمة حسين الشيخ، دار العلوم العربية.
- الكواز، محمد كريم (٢٠٠٦). *الفصاحة في العربية المفاهيم والأصول*. دار الانتشار العربي.
- كوش، دنيس (٢٠٠٧). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية*. ترجمة منير السعيداني: المنظمة العربية للترجمة.
- لالاند، أندريه (٢٠٠١). *موسوعة لالاند الفلسفية*. ط ٢، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات. مطر، أحمد (٢٠١١). *المجموعة الشعرية*. دار العروبة.
- مكيافلي، نيقولو (١٩٩٩). *الأمير*. ط ٢٣، ترجمة خيرى حماد، دار الآفاق الجديدة.
- مؤنس، حسين (١٩٧٨). *الحضارة*. سلسلة عالم المعرفة، ع ١٤.
- ميكشلي، إيكس (١٩٩٣). *الهوية*. ترجمة علي وطفة، دار الوسيم.
- هنتنجنون، صموئيل (١٩٩٩). *صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي*. ط ٢، ترجمة طلعت الشايب، سطور.